أدبُ الأَسْلاف

في الرأي والاختلاف

بقلم
محمد ياسر القضماني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

كم نحن في حاجة إلى هدي السَّلف لنيل الشَّرف! جيل تربَّى على عين الإسلام فتمثَّله حياً في كل الشؤون.

ومما يأسِرُني من تراجم هؤلاء إجلالُ بعضهم بعضاً والتأدب للمخالف في المذاهب أو الرأي أو الفتيا؛ لأنهم لا يَصْدُرون حين يَصْدُرون عن قول أو فتيا إلا بعد تقوىً لله، ونصحٍ لعباده.

وهذا الخُلق العالي في الحوار أو المناظرة أخذوه من هدي الصحابة رضي الله عنهم؛ فهل يعثُر أحدٌ منكم على صحابي قال لأخيه – حين خالفه في قول – ما فيه تسفيهٌ لعقله أو تجهيل لاستنباطه فضلاً عن أن ينسبه للكفر والضلال أو الفسق والابتداع؟!

كلنا وَقَعَ على الحادثة الشهيرة حينما هيَّج النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه للوصول إلى بني قريظة في أعقاب غزوة الخندق بقوله: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلينَّ العصر إلا في بني قريظة))! فالتزم بعضهم ظاهر الكلام فصلَّى في بني قريظة بعد فوات وقت الصلاة، وصلى بعضهم في الطريق خشية فواتها وأقرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم الفعلين أي الاجتهادين دون أن ينكر على طائفة ولم تخطِّئ طائفةٌ أختَها أنها على الحقِّ وحدها.

كلَّما صدقت النيَّات وخلُصت الأعمال سَادَت المودة وعظم الإخاء، وإذا جادل أحدٌ أخاه في مسألة رجا أن يُسَدِّد الله أخاه، وأن تتَّضح الحقيقة ويظهر مراد الله ومحبوبه على يده.

ألسنا نريد الحق؟ فلا يضيرنا ظهر على أيدينا أو على أيدي من خاصمنا أو خالفنا؟!

هذا ما ينبغي أن يُرَاجَع في هذه الأيام، وتُعَمَّق الأنظار نحوه، وينبغي أن نُشِيعَ فيما بيننا تلك الحوادث والمناقشات والمناظرات في عهد السلف الصالح؛ لتكون مثلاً يُحتذى وعظة ننتفع بها ونستضيء بنورها ونتفيأ ظلالها.

إرادةُ الحق ونِشدانُ الصواب هذا همُّهم وشُغْلهم الشاغل! يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: ما كَلَّمتُ أحداً قطُّ إلَّا أحببتُ أن يُوفق ويُسدَّد ويُعان، وتكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما كلمتُ أحداً قط إلا ولم أُبَال بَيَّن اللهُ الحقَّ على لساني أولسانه.

ويقول رحمة الله عليه: ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة.

أقول: على النصيحة لا الفضيحة كما نُنَاظِرْ أو نُحاور!!

ويقول أيضاً رضي الله عنه: والله ما ناظرت أحداً فأحببتُ أن يخطئ[1].

انظر إلى الصدق الذي لا يَعرف خلَلاً!

إنني أَحْلِفُ غير حانِث أَنْ لو كانت محاورتنا على هديٍ مِنْ هذا الخلق إذاً لارتفعت الشحناء والبغضاء، ولَحَلَّ الإخاءُ والوفاء، وكانت النكاية للأعداء لا للأصدقاء!

وبعدُ: فما قلناه هو ما ينبغي أن يتقرَّر بين أهل العلم وطلابه في كل فنٍّ وتخصُّص؛ وبخاصة أهل الفقه والشريعة الغرَّاء، وهم مِلْحُ البَلَد.

وإلى لقاءات متجددة لنطالع – إن شاء الله تعالى – في كل حلقة ولقاء حواراً أو مناظرة لسلفنا الأخيار الأبرار، والله الموفق لكل خير وسَداد.

(1) انظر أقوال الشافعي ص(223) من كتاب (الفقيه والمتفقه) للبغدادي نشر زكريا علي يوسف.

﴿بين الإمامين الشَّافعي والصَّدَفي﴾

سأخبركم عن موقف يزيدكم حباً بالشافعي وتعظيماً له!

ولكن قبل ذلك من هو يونس الصَّدفي هذا؟!

هو الإمام شيخ الإسلام أبو موسى يونس بن عبد الأعلى المصري، وكان كبير المعَدِّلين والعلماء في زمانه بمصر، وكان علَّامة في علم الأخبار والصحيح والسقيم، لم يشاركه في زمانه في هذا أحد!

وكان مع هذا كما يقول ابن خلكان: أحد أصحاب الشافعي رضي الله عنه والمكثرين في الرواية عنه والملازمة، وكان كثير الورع متين الدين.

والآن إلى حكاية الموقف!

حدَّث يونس الصَّدَفي بنفسه قال: ما رأيت أعقَلَ من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتَّفق في مسألة[2].

أرأيتم إلى هذه الصفوة من الناس التي قلَّ أن يجود بها الزمن؟! إمام طبَّقت شهرته الآفاق يحاور مَنْ هو في سِنِّ تلامذته؛ لأن الشافعي ولد عام 150هـ ويونس ولد عام 170هـ في ذي الحجة، إمام يأتي لمن يصغُرُه بعشرين سنة متودِّداً له ومتألفاً وهو آخذ بيد مخالفه قائلاً: ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتَّفق في مسألة؟!

وكأنِّي بالإمام الشافعي رحمة الله عليه قد شعر بأن نَفْسَ الإمام يونس قد تغيَّرت عليه؛ إمَّا بأن يكون لإبطاء في الحضور عليه أو لسبب آخر فكانت منه هذه الكلمات.

كلمات تنضح بالعقل والحكمة وتتدفق بالحياة والسُّمو.

وإن لم نتَّفق في مسألة!! عجيب حقاً؛ أي الإمام الشافعي يَقبل عقله الكبير أن تبقى المودة قائمة والتقدير قائماً بين عالمين أو طالبين وإن لم يتَّفقا على مسألة.

فكيف بنا نرى من يهجر مجلساً أوجماعة من أجل مسألة أو مسألتين تخالف فيها!

---

(2) سير أعلام النبلاء 16/10 وانظر ترجمة الصدفي في السير 12/348-351 ووفيات الأعيان لابن خلكان 7/249-254.

إن كلمات يونس عمَّا جرى بينه وبين الشافعي تزخر بالفوائد؛ ومنها أن مجيء الكبير إلى الصغير للتألف لا يحطُّ من قدره؛ بل يزيده تعظيماً ومحبة.

ومنها: أن الأستاذ لا ينبغي له أن يتأثر لمخالفة مُجالِسه أو طلابه له وكم سمعنا عن مخالفة صاحبي أبي حنيفة رحمه الله له في مسائل كثيرة، وكان يُقبِلُ عليهما ما لا يُقبل على غيرها؛ لأن نشدان الحقيقة والصواب هو الغاية المرجُوَّة.

إن العظيم يعرف قدر العظماء ويستبقي صحبة الكبار والصادقين والأخيار؛ لقد تَفَرَّسَ الشافعي حال الإمام يونس فرآه من الراسخين والعقلاء، بل أُثر عن الشافعي أنه قال – وقد أشار إلى الباب الأول من أبواب المسجد الجامع ولعله مسجد عمرو بن العاص–: ما يدخل من هذا الباب أحدٌ أعقل من يونس بن عبد الأعلى! فلذا لم يفرِّط في صحبته.

هكذا فليكن خلق من يُحاوِر أو يناظر!

وإذا رأيتَ أن هذا الذي حاورتَه أو ناظرته قد تعكَّر عليك أو تأثر فتذكر شمائل هؤلاء وأخلاقهم فتكسب سعادة الدارين.

هذا إن أردنا مصلحة الدين والعلم، أما إن أردنا مراعاة حظوظنا وشهوات نفوسنا فهيهات أن يتحقق على أيدينا عزُّ الدين أو نشر العلم والمعرفة!!

﴿إن العلم يُؤتى ولا يأتي﴾

هل سمعتم أن حاكماً يحكم عدة دول ويخضع له الناس يفاوض شيخاً على أن ينتفع به، وبعد حوار يذلُّ الحاكم بين يديه ويأخذ كما يأخذ الطلاب؟!

وحاكِمُنا اليوم هو أمير المؤمنين هارون الرشيد، وشيخُنا هو الإمام مالك فلنستمع إلى هذا الحوار، ولنعش في عَبَق هذه القصة العجيبة:

حدَّث عتيق بن يعقوب الزَّبيدي قال: قدم هارون الرشيد المدينة، وكان بلغه أن مالك بن أنس عنده [الموطأ] يقرؤه على الناس، فوجَّه إليه البرمكيَّ فقال – أي الرشيد –: أقرئه السلام وقل له يحمل إليَّ الكتاب ويقرؤه عليَّ، فأتاه البرمكيُّ، فقال – أي مالك –: أقرئه السلام، وقل له: إن العلم يُؤتى ولا يأتي، فأتاه البرمكيُّ فأخبره، وكان عنده أبو يوسف القاضي، فقال: يا أمير المؤمنين، يُبلِغُ أهلُ العراق أنك وجَّهت إلى مالك في أمرٍ فخالفك، اعزم عليه، فبينما هو كذلك، إذ دخل مالك، فسلم وجلس، فقال له الرشيد: يا ابن أبي عامر أبعثُ إليك وتخالفني؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني الزهري، عن خارجة بن زيد، عن أبيه قال: كنت أكتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم {لا يستوي القاعدون من المؤمنين}(النساء:95) وابن مكتوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله إني رجل ضرير، وقد أنزل الله عليك في فضل الجهاد ما علمتَ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا أدري، وقلمي رَطْبٌ ما جفَّ، ثم وقع فخذُ النبي صلى الله عليه وسلم على فخذي، ثم أغمي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم جلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا زيد اكتب {غير أولي الضرر}(النساء:95).

ويا أمير المؤمنين حَرْفٌ واحد بُعث فيه جبريل والملائكة عليهم السلام من مسيرة خمسين ألف عام، ألا ينبغي لي أن أعزَّه وأجلَّه؟ وإن الله تعالى رفعك وجعلك في هذا الموضع بعملك، فلا تكن أنتَ أول من يُضيّع عزَّ العلم فيضيّع الله عزَّك، فقام الرشيد يمشي مع مالك إلى منزله ليسمع منه [الموطأ] فأجلسه على المنصَّة، فلما أراد أن يقرأه على مالك، فقال – أي الرشيد –: تقرؤه عليَّ، قال: ما قرأتُه على أحد منذ زمان، قال: فيخرج الناس عنّي حتى أقرأه أنا عليك، فقال: إن العلم إذا مُنع من العامَّة لأجل الخاصَّة لم ينفع الله تعالى به الخاصة، فأَمر – أي الرشيد – معنَ بن عيسى القزَّاز ليقرأه عليه، فلما بدأ

ليقرأه قال مالك لهارون: يا أمير المؤمنين! أدركت أهل العلم ببلدنا وإنهم ليحبُّون التواضع للعلم، فنزل هارون عن المنصَّة وجلس بين يديه وسمعه ، رحمهما الله تعالى اهـ[3].

أرأيتم إلى حياة هؤلاء السلف الكريم؟!

أسمعتم إلى الأدب والحوار الكريم بين الحاكم والعالم؟

لقد جاء مالك إلى الحاكم بعد أن عزم عليه فلم يجد بُدّاً من خلافه واللهُ أمره بطاعته، ولم يأمره بمعصيته فلبَّى، ولكن أراد أن يبيِّن له حرمة العلم وقدر المعرفة وأنهما يستحقَّان منَّا السعي إليهما وتعظيمهما.

وقد بَيَّن له أن الحرف والكلمة من القرآن تتنزَّل به جمهرةٌ من الملائكة على رأسهم كبيرهم جبريل عليهم السلام من مسيرة خمسين ألف سنة، من فوق سبع سماوات، أرأيت إلى كل هذه المسافة تُطوى من أجل حرف؟! والسُّنَّة وَحْيٌ {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى}[النجم:3-4].

أفلا تستحق مني يا هارون هذه السُّنَّة السَّنيَّة وهذه الجمل النبوية في [موطَّئي] أن أعظمها وأُجلَّها عن كل بعيد متعالٍ عن الوصول إليها؟!

أدركتُ أهل العلم ببلدنا وإنهم ليحبون التواضع للعلم!

ما قال له: أسأتَ الأدب، أو لستَ جديراً بأخذ هذه السنة؛ ولكن بهذا كأنه يقول له: ألا تريد أن تكون من أهل العلم ومن المعظِّمين للسنة؟ فسبيلُ ذلك التواضع؛ أن تجلس بين يدي الشيخ والعالم تتواضع له كما تواضع هو بين يدي شيخه وهكذا إلى رسول الله، أَوَ نسيت كيف جلس جبريل بين يديه عندما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان في حديث طويل؟!

هكذا فليكن الأدب وهكذا فليكن الحوار.

(3) شذرات الذهب لابن العماد 2/352-353.

﴿كِلَانا على خيرٍ وبرٍّ﴾

يا ليت هذه الكلمات (كلانا على خير وبر) تكون شعاراً بين كل متخالفين ما دام الاختلاف سائغاً وله اعتبار.

فمن قائلُ هذه العبارة المنوَّرة التي تدل على عقل كبير قبل أن تدل على العلم والمعرفة والحكمة؟!

فإليك قصتها!

كتب عبد الله العُمري العابد إلى مالك يحضُّه على الانفراد والعمل، فكتب إليه مالك:

إن الله قسَّم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد. فَنَشْرُ العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبرٍّ[4].

هذا من أَنْفَسِ الكلام، يقول إمام من أئمة الأنام، إمام دار الهجرة – على منورها الصلاة والسلام – فهو يريد أن يُقَرِّر لهذا العابد الذي ينصحه أو يشير عليه باعتزال الناس والاشتغال بالتعبد بأن الناس يتنوَّعون في أنواع أعمالهم التي يتوفَّرون عليها ويُغْرَون بها كما يتنوَّعون ويختلفون في أرزاقهم.

فإننا قد نجد امرءاً حُبِّبت إليه الخلوة والتنقل بالركعات الطويلة تهجُّداً بالليل، وهذا قد حُبِّب إليه السعي في مصالح الناس والإعانة على قضائها، وهذا أُغْري بالصدقات ينوّع فيها ويلوّن في مصارفها لا همَّ له إلا ذلك.

وتشعر عندما ترى هؤلاء وهم مسترسلون بهذه الأعمال لا يجتمع قلبهم إلا عليها، ولا تهدأ نفوسهم إلا فيها تشعر بأن الله سبحانه وتعالى قد سخَّرهم لذلك ووظَّفهم فيه.

وكلٌّ مشغول بطاعتة، ومنصرفٌ لمعروف راضٍ به.

---

(4) سير أعلام النبلاء 114/8.

فلا هذا المصنِّف مثلاً ذو الجَلَد الطويل والصبر الكبير يستطيع أن يتردَّد في المصالح هنا وهناك، ولا هذا الذي يسعى في خدمة الناس يستطيع أن يُصَنِّف ويكابد التأليف، ولله في خلقه شؤون!

وكأني بهذا الإمام الكبير يريد أن يُقرِّر حقيقة تخفى على كثيرين حين يرى بعضهم بأن الناس ينبغي أن يشتغلوا فيما يشتغل فيه ويُعْنَوا بما يُعنى يه.

ولا تستقيم هذه الحياة إلا بهذا التنوُّع في الدين والدنيا!

ولكنه أراد أن يقرر له آخر الأمر أنَّ مِنْ أَجَلِّ هذه الطاعات التي ينشغل فيها الناس ويعتني بها متعبد هو التعليم والدعوة والإرشاد للشرائع النبوية.

وما ذلك إلا لأن التدريس والتفقيه نَفْعُه متعدٍّ، والاشتغال بالتعبد ونوافل الطاعة نفعه قاصر.

وذَوْقُ الإمام مالك وتبجيله لأخيه المسلم المتعبد جعله يقول له: وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه؛ أي: لا أظن الحال التي أنا فيه دون حالتك، وهذا من هَضْم النفس، وإلا فإن حاله لا شك أنه أفضل لنفعه المجموعَ العظيمَ من الناس.

إن فقه الإمام لم يُمْلِ عليه أن يقول لهذا المتعبد: ألا تستحي أن تدعوني إلى حالٍ تحطُّني عن رتبتي العليَّة بل إنه قال له: وأرجو أن يكون كلانا على خير وبرٍّ وكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له!

ولا بد أنَّ التفرغ للتعبد لا يُقبل إلا أن يكون على علمٍ وتحصيل للمطلوبات، وهكذا فليكن الأدب عند الاختلاف.

﴿إذاً أرجعُ وأنا صاغر﴾

لا يأْسرني شيءٌ مثلُ الاعتراف بالحق والتطامن له!

وكثيرٌ همُ الذين يتحاورون ويتناظرون وأقلُّهم مَنْ يرجع إلى الحق إذا وَضَح له واستبان!

وهاكم قصة من هذا النفر القليل الجليل:

ذكر ابن حجر في كتابه [تهذيب التهذيب] ترجمةَ عبيد الله بن الحسن العنبري القاضي البصري الثقة المتوفى سنة 168هـ وفيها: قال ابن مهدي:

كنَّا في جنازة فسألته – أي القاضي العنبري – عن مسألة فغَلِط فيها، فقلت له: أصلحك الله! أتقول فيه كذا وكذا؟!

فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه فقال: إذاً أَرجع وأنا صاغر، لأَن أكون ذَنَباً في الحق أحبُّ إليَّ من أن أكون رأساً في الباطل[5].اهـ

أقول: عجيب أَمْرُ هؤلاء السَّلف حقاً!

لا يشبعون من العلم، ولا يفترون من تطلُّبه في كل مكان!

الناس في مقبرة، وقد أطبق عليهم ذكرُ الموت، وهم في أول منزل من منازل الآخرة، ومع هذا يغتنم عبدُ الرحمن بن مهدي هذا الشهير قاضينا وأحد سادات البصرة الأكابر علَّه أن ينتفع به في مسألة شَغَلته!

ويلمح في كلامه خطأً فيكون في حسِّه إجلالُ العلم أكبرَ من إجلال الأشخاص مهما كبروا، فيقول له – وهو بمنزلة التلميذ – أصلحك الله!

والإنسان العظيم يرجع إلى الحق، إذ هو أقدر الناس وأولاهم بتقديسه وإيثاره على كلِّ شيء.

(إذاً أرجع وأنا صاغر) أرجع متطامناً دون كِبْر، فلَأَن أكون في آخر الرَّكْبِ الذين اهتدوا إلى الحق وعرفوه خير ألف مرة من أن أترأس باطلاً، أو أن أكون داعية لضلال!

لقد مَرَّ على هذه الأرض أمثلة من المتعجرفين المتغطرسين الذين يرتضون أيَّ شيء إلا الاعتراف بالذنب أو الخطأ!

---

(5) تظهر القصة وترجمة هذا القاضي في تهذيب التهذيب 7/7-8.

وما رجع مَنْ رجع إلى حقٍّ تاه عنه، أو صواب غفل عنه إلا لنشدانه الإخلاص، وإيثاره الصدق على كل شيء.

وهؤلاء يَعظُمُون في الأعين، ويَنْبُلُون في المجتمعات حتى إنهم ليُطلَبون في مُلمَّات الناس وحوادثهم لعزَّتهم وقَدْرهم.

ولِصِدْقِ هذا العالم أُرِيدَ على القضاء بعد وفاة القاضي سوار بن عبيد الله، فما كان منه إلا أن هَرَب فأَتَوا به وأكرهوه على القضاء، فلم يجد بُدّاً من ذلك.

فإذا أردتَ أن تأخذ العلم فلتأخذه عن أمثال هؤلاء الذين يهضمون نفوسهم، وتتضاءل في ساحتهم كل الحظوط في سبيل تبيان الحق وتقريره.

لماذا لا تكون هذه القَوْلة (لأن أكون ذَنَباً في الحق أحب إليَّ من أكون رأساً في الباطل) لماذا لا تكون حاضرةً بين كل متحاورين أومتناظرين ليعظموا في عين الله قبل عين خَلْقه؟!

﴿بين ابن الأَنْباري والدَّارقُطني﴾

مَنْ منَّا لم يجلس مجلساً أو يستمع درساً فيقع من كلام المتحدِّث على لَحْنَةٍ أو تصحيف أو تحريف؟! وقد كان في مجالس المتقدمين ورودُ مثلِ هذا – وإن كان نادراً – فكيف يكون التصويب؟ وما هو الأدب في ذلك؟

نحن الآن في مجلس العلامة الحافظ أبي بكر محمد بن القاسم النحوي الشهير بابن الأنباري شيخ الأدب صاحب التصانيف الكثيرة وبخاصة في علوم القرآن والغريب والمشكل، فلنستمع إلى هذه القصة التي يرويها حمزة بن محمد بن طاهر عن مجلس من مجالسه، قال: كان ابن الأنباري زاهداً متواضعاً حكى أبو الحسن الدارقطني أنه حضره في مجلس يوم جمعة، فصحَّف اسماً، إما كان حِبَّان أو حيَّان. قال أبو الحسن: فأعظمتُ أن يُحمَل عن مثله وهم، وهِبْتُه، فلما انقضى المجلس تقدمت إلى المستملي وذكرتُ له، وعرَّفته الصواب، ثم حضرتُ الجمعة الثانية، فقال ابن الأنباري للمستملي: عرِّف جماعة الحاضرين أنَّا صحَّفْنَا الاسم الفلاني، ونبَّهَنَا على الصواب ذلك الشاب، وعرِّفْه أنَّا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال[6].اهـ

أرأيت إلى الأدب بل الآداب التي اجتمعت في هذه الواقعة؟!

الشاهد من القصة أولاً مجيء الدارقطني إلى المستملي وتعريفه بالصواب بكل لطف وحكمة غيرةً على العلم وأهله، إذ همُّهم التعريف بالصواب وشيوعه ولو لم يُنْسب إليهم.

والأدب هنا في عدم الجهر بالصواب الذي يعتقده في الملأ وبخاصة أنه شاب، والأدب يقتضي مع الشيوخ أَنْ يُتلطف معهم ويُتأدب، مع تبليغهم ما نعرف من الصواب.

والمستملي سيبلِّغُ الشيخ صاحب الحلقة بالصواب، وهو الذي حصل، فقد راجع ابن الأنباري الأصلَ الذي يُحدِّث منه، إذ إنه ما أَمْلَى من دفتر قطُّ في كلِّ ما حدَّث.

وقد روى عن نفسه أنه قال: أحفظ ثلاثة عشر صُندوقاً.

ومما ذكر أبو علي القالي في حفظه قال: كان أبو بكر بن الأنباري يحفظ فيما ذكر ثلاث مئة ألف بيت شاهدٍ في القرآن.

فَرَجُلٌ هذه حاله ألا يُهاب ويُتَأَدَّبُ معه؟!

---

(6) انظر القصة وترجمة ابن الأنباري في طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي 3/32- 35.

إن تعظيمهم للعلم وتوقيرهم للسنة جعلهم يهضمون أنفسهم، فيقول أمام جمهوره الغفير الحاضر المستمع له: (نبَّهنا على الصواب ذلك الشاب)!

ووالله ما قدَّس أحدٌ العلم كتقديس سلفنا، وما غَارَ عليه أحد كغَيْرتهم عليه!!

كم مِنْ فَرْقٍ بين هذا السلوك وبين سلوك بعضهم في هذا الزمان، فقد يكابر المتحدث، ويتغافل عن التصويب الذي يتعيَّن ولا يجوز غيره؛ لأن المصوِّبَ كان على جفاء وغلظة وتنقيص للمتحدث؟!

فليكن همُّنا أن يَظهر الصوابُ والحق بأي طريق، ولْنُنَحِّ حبَّ الظهور، وصدق من قال: حبُّ الظُّهور يقصم الظُّهور.

﴿حوارٌ في مسجد رسول الله﴾

أَقِفُكَ في هذه الحلقة على واقعة يتجلَّى فيها أدب اثنين من أئمة الهدى في الحوار والمناظرة إمامِ دار الهجرة مالك بن أنس والإمام الأفخم أبي حنيفة – رحمة الله عليهما –.

فقد روى القاضي أبو القاسم بن أبي العوَّام في كتاب (فضائل أبي حنيفة وأصحابه) (مخطوط) بسنده إلى عبد العزيزِ الدَّاراوَرْدي أو ابن أبي سلمة قال: رأيت أبا حنيفة ومالك ابن أنس في مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد صلاة العشاء الآخرة وهما يتذاكران ويتدارسان، حتى إذا وقف أحدهما على القول الذي قال به صاحبه أمسك الآخر من غير تعنيف ولا تمعُّر ولا تخطئة، حتى يُصلّيا الغداة في مجلسهما ذلك[7].

لما وقعتُ على هذا الخبر جَلّ في عيني كلٌّ من هذين العظيمين فوق جلالتهما، وأكبرتُهما فوق إكباري لهما.

رأسان كبيران بل جَبَلان راسيان في العلم والاستنباط ،يتذاكران ويتدارسان، ولم يُبيِّن هنا الحوار في مسألة أو مسائل، ولا يَبْعُدُ أن يكون حوارُ ليلةٍ كاملة في مسألة من مسائل العلم فإن شواهد كلٍّ واستدلالاته قد تستغرق ساعات، فهذا الإمام الكبير السيوطي – رحمه الله – وهو دون هذين الإمامين الجليلين بمراحل ومع هذا يقول: لو طُلب مني أن أكتب في أي مسألة من مسائل العلم لكتبتُ فيها مصنَّفاً! فكيف بهذين الإمامين؟!

فنرى في هذه الجلسة العلمية الأدبية في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذين العَلَمين كيف يقف كلٌّ واحد على حُجَّةِ صاحبه فلا يتمعَّرُ وجهه ولا يمتعض ويتميَّز من الغيظ لإيراد الرأي المخالف، بل ولا يخطِّئ أدباً فقد يكون صواباً، ولكن هذا الذي بَلَغَ إليه علْمه، وهذا الذي وَقَرَ في صدره، وهل لإنسان أن يفتي إلا بما وقر في صدره من الحق؟! ولكن مع هذا قد يحتمل الخطأ ومن هنا نفهم أمثال هذه المواقف وهاتيك القصص.

---

(7) انظر ص45 من كتاب نماذج من رسائل الأئمة السلف وأدبهم العلمي لعبد الفتاح أبي غدة – رحمه الله – دار البشائر الإسلامية – الطبعة الأولى 1417/1996.

ومن الفوائد التي انطوت عليها هذه القصة وهذا الخبر الشَّغفُ العجيب الذي كان فيه السَّلف وبخاصة هؤلاء الأعلام في مدارسة العلم ومجالسة العلماء ولو امتد المجلس ساعات وساعات.

وقد مرَّت كثير من القصص عن السلف في أنه بقي في حوار مع المخالف بكل أدب من بعد العشاء حتى بزغ الفجر، ثم يصلون جماعة وينصرفون على مودة واحترام.

واسمع إلى ثناء من الإمام مالك – رحمه الله – على حُجَّةِ أبي حنيفة – رحمة الله عليه – وإلى قدرته الباهرة في الاستدلال على ما يريد:

يقول الشافعي – رحمه الله –: سئل مالك يوماً عن عثمان البتِّي قال: كان رجلاً مقارباً، وسئل عن ابن سُبْرُمة فقال: كان رجلاً مقارباً، قيل فأبو حنيفة؟ قال: لو جاء إلى أساصينكم هذه، يعني السَّواري، فقايَسَكم على أنها خشب لظننتم أنها خشب[8].

فلم يحملهم علمهم إلا على احترام عِلْمِ غيرهم، والثناء عليه.

وسمعتُ من أحد شيوخنا كلمة (ذهب) بدل من (خشب).

هذا وقد ذكر غيرُ واحد لقاء الإمام أبي حنيفة بالإمام مالك، وأبو حنيفة أسنُّ بثلاث عشرة سنة إذ ولد في عام (80) ومالك في عام (93).

(8) ص269 من كتاب الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة – دار البشائر الإسلامية – الطبعة الأولى 1997/1417.

﴿امرأةٌ أَصَابتْ ورجلٌ أَخْطَأَ﴾

إذا ذُكرت أخلاق السلف في المناظرات والمحاورات، وكيف كانوا في المحل الأرفع من التأدب وهضم النفس فلا بد من أن نشير إلى قصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – مع المرأة التي ردَّت عليه في مسجد – رسول الله صلى الله عليه وسلم –!

فعن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال: خطب عمر فقال: ما إكثاركم في صَدُقات النساء؟! فقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه والصدقات فيما بين أربعمائة درهم فما دونها، فلا عرفن ما زاد رجل في صَدَاقٍ على ذلك! فنزل.

فاعترضته امرأة من قريش فقالت: أَنَهَيت الناس أن يزيدوا النساء في صداقهن على أربعمائة؟! أَوَ ما سمعتَ ما أنزل الله من القرآن؟!

قال: وأين ذلك؟!

قالت: {وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً}[النساء:20].

فقال: اللهم غفراً كلُّ إنسان أفقه من عمر!!

ثم رجع فركب المنبر، وقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة؛ فمن شاء أن يُعطي ما أحبَّ فليفعل. اهـ

وفي رواية: امرأة أصابت ورجل أخطأ(9)!!

كنتُ ولا أزال أعجب من هذا الموقف، وأراجع هذه الحادثة بكل إكبار وإجلال وفخر!

أيُّ رتبةٍ بَلَغَتها صحابةُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟!

أيُّ سمُوٍّ تبوَّأه هؤلاء؟!

أميرٌ للمؤمنين، مقدَّمٌ على جميع الوجوه، وإن له القاصي والداني، وخضع له الكبير والصغير، لا يأنف أن يقف ويعترف بالخطأ – عندما اتَّضح له – أمام وجوه الرعية وكبار الناس في أشهر موقع من مملكته!

وكان من هَضْمه لنفسه وتطامنه للحقِّ أن أَخَّر نفسه في الذِّكْر، وعدَّ نفسه رجلاً من الرجال فلم يَذكر لَقَبه، وقدَّم ذِكْرَ مَنْ خَصَمه!

---

(9) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين 1/289.

وهل يعيب الحقَّ أن تذكره امرأة؟!

وهل يغضُّ من شأن الصواب أن يهتدي إليه غيرُ الرجال؟!

لا، لا، فقد تُوفَّق للحق امرأةٌ، ويضلُّ عنه جُمْلة رجال!

إننا نَنْشُدُ الحقَّ ونبتغي دائماً موافقته، ونشكر من دلَّنا عليه، ونَدِينُ اللهَ بتوقيره، رجلاً كان أم امرأة!

والذي يعظِّم الإنسان خضوعه للحق لا جنسُه!

الذي يُعلي الإنسان في دار الكرامة موافقته الحق لا حَسَبُه أو نَسَبه!

وسيدنا عمر – رضي الله عنه – لو أراد أن يُفَلْسِفَ رأيه، ويدعمه بعقله لقَطَعها، ولأرى الناسَ أنَّ الحق معه، ولكن ما أراد أن يُناطح أمام عظمة القرآن وجلال الوحي!

لقد تغالى الناس بالمهور، ووقع كثير من الشباب بعَنَت بالغ، وتأخر كثير من الشباب عن التحصُّن بسبب المغالاة بالمهور، وهذا الذي دعا سيدنا عمر لما قال.

ثم لما رأى أن ظاهر القرآن يفيد جواز أن يكون المهر كبيراً سكت: {وآتيتم إحداهن قنطاراً} قنطاراً!!

سكت لأنه رأى أنه لا حقَّ له في تحديد قدر معين، ولكن لا يعني هذا أنه لا نَنْدِبُ الناسَ إلى الدعوة إلى التسهيل وعدم المباهاة بالمغالاة.

فهذا لا ترتضيه حتى المرأة المعترضة؛ إذ ليس من حظِّ بنات جنسها أن يُتَأخَّر عنهن بسبب غلاء المهور!

نعم كان السلف في المحلِّ الأرفع من أدب الحوار والمناظرة، ومواقفهم دروس تُحتذى!

﴿كلُّ النَّاس أَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ﴾

ذكر الامام الزبيدي شارح كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رحمهما الله تعالى قصة فيها من أدب الأسلاف مما يصلح أن ينضوي تحت موضوعنا قال:

ويروى أن عمر رضي الله عنه سمع رجلاً يقول في دعائه: اللهم اجعلني من عبادك القليل!

فقال: يا أخي! ما هذا الدعاء؟!

فقال: يا أمير المؤمنين سمعت الله يقول: {وقليل من عبادي الشَّكور}[سبأ:13] فأنا أطلب أن أكون من أولئك القليل!

فقال: كل الناس أعلم من عمر! اهـ(10).

تفكرت في هذه القصة فوجدتها تنطوي على فوائد:

نرى السلف كيف يتدبرون كتاب الله تعالى ويستنبطون منه فهذا الرجل يهتدي نظره في قوله تعالى: {وقليل من عبادي الشكور}[سبأ:13] إلى جواز أن يقول: اللهم اجعلني من عبادك القليل، كقوله: اللهم اجعلني من الشاكرين.

وقد خفي على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قصد هذا الرجل ولما كان دعاءً غير مألوف ولا مسموع سارع لإنكاره، ولكنه سارع أيضاً للاعتراف بأن الرجل مصيب ولا حرج في أن يدعو بهذه الكلمات مادام قصده أن يكون من الشاكرين.

ومن هنا نرى أن السلف كانوا في غاية الصدق، وبالمكان الأرفع من فضيلة الرجوع إلى الحق فور معرفته.

لم تطل القضية، ولم يحتج عمر رضي الله عنه إلى أن يدافع عن رأيه وإنكاره وكان بوسعه أن يفلسف إنكاره؛ كأن يقول له مثلاً: على كل حال هذا دعاء ما سمعناه، والخير في أدعية النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته.

ما كان في حاجة إلى أن يماطل في الاعتراف بأن لدعاء الرجل هذا مساغاً يُقبل.

ما أَبْرَدها على الفؤاد أن تقول إذا أخطأتَ: أخطأتُ، أو تقول: فاتني كذا، والحق معك، أو تقول: لم أكن مستحضراً للحجة الفلانية، وأنت مصيب باحتجاجك بها.

---

(10) إتحاف السادة المتقين للزبيدي 1/289-290.

ما أَبْرَدها على الفؤاد أن تقول: كنتُ لا أدري هذا الدليل الذي استنبطتَ منه كذا، أو استدللت به على كذا.

ومما نرى من الأدب في هذه الواقعة أن الرجل يتأدب مع أمير المؤمنين، فلم يقل له: كيف فاتك كذا أو كيف يخفى عليك ما جاء في القرآن؟! أو أشنع من هذا كأن يقول له: أنت لا تقرأ القرآن؟! أو: أَمَا مررتَ على قول الله تعالى كذا؟ وإنما قال كلاماً فيه غاية الذوق: يا أمير المؤمنين سمعتُ الله يقول ...

لم يقل كما يقول بعض من يحاور أو يناظر اليوم: يا جاهل كيف تعترض علي وهذا في القرآن أو في الحديث؟!

والذي يأسِرُ الفؤاد من كلام عمر رضي الله عنه أنه يقول: كل الناس أعلم من عمر!

يقول هذا إمعاناً في هضم النفس والتطامن للحق والتواضع لمن يهتدي لشيء من الحق لم يهتد هو إليه.

ولما كان استدلال الرجل على دعائه ظاهر من القرآن اعتبر نفسه بعيداً عن الفقه، وأن آحاد الناس اهتدوا لِمَا لم يهتد إليه، فهم إذاً جديرون أن يكونوا أفقه منه.

ألا يجدر بنا أن نتلمَّس الآداب في حياة أسلافنا؟!

﴿لا تسألونا وهذا الحَبْر فيكم! ﴾

تاريخ أسلافنا زاخر بقصص التأدب عند الاختلاف وإليك هذا الموقف:

نحن الآن في الكوفة في زمن إمارة الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ويُرفع إليه فيما يرفع هذا السؤال: رجل قُتل مقبلاً غير مدبر أين هو؟

قال الأمير أبو موسى: هو في الجنة!

سؤال سهل، والجواب عنه معروف، ولا يحتاج إلى توقف!

وهنا يُفاجِئُ الناسَ الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيقول للسائل: أعده على الأمير فلعله لم يفهم!

فأعاد عليه فأعاد الجواب ثلاث مرات: هو في الجنة!

وهنا يُضطر عبد الله بن مسعود إلى أن يقول: وأنا أقول إن قُتل فأصاب الحق فهو في الجنة!

فقال أبو موسى: الحقُّ ما قال!

وقال: لا تسألونا وهذا الحبر فيكم، أو لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر بين ظهرانيكم(11)!

لا تدري ممَّ تعجب! من قول الأمير أو من ردِّ ابن مسعود عليه؟! جيل فريد بحق!

لو كان المردود عليه واحداً من أمثالنا لاستهزأ بمن ردَّ عليه بقوله: ما هو الذي جاء به هذا المعترض عليَّ؟

أو لقال: هذا يعرفه كل الناس! أو أصغر طالبٍ للعلم يعلم أنَّ من يُقتل في الجنة إن كان قتاله لله وفي سبيله!

ولكن هذا الأمير عرف بأن الحقَّ في الجواب هو ما كان موافقاً لجواب النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يُطْلق وإنما قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله!

لأن الرجل يقاتل حميَّة ويقاتل رياءً ويقاتل سمعة، قد يقاتل لحظوظ كثيرة، ولمقاصد أرضية تافهة لا يأتي عليها حصر.

---

(11) إتحاف السادة المتقين للزبيدي 1/ 290 بتصرف.

الذي يؤجر واحدٌ، والذي ينظر الله إليه هو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا!

فلما أجاب الأمير دون أن يُنبِّه على هذا الذي نبَّه عليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم اعتبر ابنُ مسعود جوابه غير سديد، وأنه لابد من تبليغ هذا الاحتراز، وهذا القيد المهم في هذه المسألة الخطيرة.

وكان في تبليغه الجواب في غاية الذوق، إذ قال للسائل: أعد على الأمير فلعله لم يفهم!

هم لا يشتهون أن يُنسب لهم الكلام، وإنما الذي يشتهيه واحدهم وصول الناس وبلوغهم الحق وعدم غيابهم وعمايتهم عنه.

ولما لم يفطن الأمير إلى مراد ابن مسعود قال في رواية: ما عندي غير هذا، فما تقول أنت؟!

اِسمعوا هذا الذي يدل على التأدب للعلم، وكأنه بين يدي أستاذه!

بل لقد بالغ الأمير إلى هَضْمَ نفسه هضماً ظاهراً، وكأنه لا يحق له أن يُفتي بعد اليوم ما دام هذا العالم البصير بمقاصد النبي صلى الله عليه وسلم موجوداً حياً!

إنه الأدب الجم الذي ربَّاهم عليه صلى الله عليه وسلم، ورضي عن هؤلاء الذين كانوا بحق خير من ورث هذا العلم النبوي.

فيا رب أدِّبنا بآدابهم، وأَفِض علينا من معارفهم وعلومهم.

﴿الميتُ يُبعَثُ في ثيابه﴾

فيما يلي موقف يجمع فوائد منها الأدب عند الخلاف:

أخرج أبو داوود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه لما حضره الموت دعا بثياب جُدُد فلبسها ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((الميت يُبعث في ثيابه التي يموت فيها)).

أي أن هذا الصحابي الجليل عَمِلَ بظاهر الحديث، فأراد أن يُقبض حين يُقبض على جِدَّة وبَهَاءٍ.

وقد نقل السيوطي رحمه الله عن الزركشي رحمه الله أن عائشة رضي الله عنها أنكرت عليه ذلك وقالت: يرحم الله أبا سعيد، إنما أراد النبي صلى الله عليه وسلم عمله الذي مات عليه قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((يحشر الناس حفاة عراة غُرْلاً))[12]. اهـ

انظر إلى ذَوْق أُمِّ المؤمنين رضوان الله عليها وأدبها مع صحابي من الصحابة الأجلَّاء فهي لم تحقِّر رأيه وتشنِّع على هذا الفهم، ولم تقل مثلاً: أين هو من لغة العرب، هذا المعنى معروف مشهور يعرفه الصِّغار.

أو: عجبنا من هذا الفهم وهذا التصرف الغريب!

إلى غير ذلك مما يقول الناس في هذه الأيام!!

وَكَلَتْ له نَظْرته أو اجتهاده الظاهري لهذه الكلمات، مستأنساً أن يُقبض على جديد وطهارة.

وقد عَنْوَن الإمام أبو داوود صاحب السنن بقوله: باب ما يستحب من تطهير ثياب الميت عند الموت.

وكأنه بذلك يرى ظاهر الحديث أيضاً، ويحب للمسلم أن يُعتنى بثيابه إن كان في سياق الموت حتى إذا ما قبض قبض على طهارة سواء كان ثوبه جديداً أو لا.

وأما ما ذهبتْ إليه السيدة الجليلة المباركة أم المؤمنين رضي الله عنها فمشهور معروف من لغة العرب يقولون: فلان طاهر الثياب إذا وصفوه بطهارة النفس والبراءة من العيب، وتقول: دَنِس الثياب إذا كان على خلاف ذلك.

---

(12) عين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة للسيوطي ص49.

ويكون على هذا تأويل الحديث: إن الإنسان يُبعث على عمله الذي يموت عليه.

كما ورد: ((يُحشر المرء على ما مات عليه))، أي من العمل.

قال الشيخ محمود السبكي في شرحه لسنن الإمام أبي داوود المسمى بالمنهل العذب المورود: وتأوَّل بعض العلماء الثيابَ في الحديث بالعمل يريد أن يبعث الإنسان على ما مات عليه من عمل صالح أو عمل سيء لملابسة الرجل لها ملابسة الثياب.

وهذا لعمري من لطيف التوجيهات المناسبة لقول العرب فلا أظهر في اشتمال شيء على الإنسان من لباسه الذي يُجَلِّله ويعمُّه ويُسبغ عليه.

كما قال الله تعالى لما أراد أن يصور إحاطة الجوع والخوف وتمكنهما من المعذَّبين: {فأذاقها الله لباس الجوع والخوف} [النحل: 112].

وقد جاء أيضاً قوله تعالى: {وثيابك فطهر} [المدثر: 4] محتملاً لهذا الظاهر وما وراءه من تطهير النفس وملاحظة آفاتها وشرورها وكفكفة رعوناتها.

وهذا له نظائر كثيرة في النصوص فبعضهم يرى الظاهر وبعضهم يتلطف في ذكر معنى يغمض على العامة، وكلٌّ يجلُّ بعضهم بعضاً، ولا يحقر أحدهم وجهة الآخر واجتهاده.

ولا غضاضة في ذلك، والغضاضة كل الغضاضة والسُّوء كل السوء أن يَقْصُرَ امرءٌ الناس على رأيه ويَأْطِرَهُم على اجتهاده أَطْراً!

أخيراً: لا تناقض – كما يقول الشيخ السبكي – بين حديث أبي سعيد وبين حديث ((يحشر الناس حفاة عراة غرلاً)) فإن الحشر غير البعث؛ إذ البعث من القبور[13].

(13) انظر 250/8 بتصرف من المنهل.

المراجع والمصادر

1. الفقيه والمتفقه للإمام الخطيب البغدادي – نشر زكريا علي يوسف.
2. سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية 1982/1402.
3. وفيات الأعيان بأنباء أبناء الزمان للإمام ابن خلكان – تحقيق الدكتور إحسان عباس – دار صادر – بيروت.
4. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي – بإشراف عبد القادر أرناؤوط وتحقيق محمود الأرناؤوط – دار ابن كثير – دمشق – الطبعة الأولى 1988/1408.
5. تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني – طبعة دار صادر – بيروت.
6. طبقات علماء الحديث للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي – تحقيق إبراهيم الزيبق – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولى 1989/1409.
7. نماذج من رسائل الأئمة السلف وأدبهم العلمي للشيخ عبد الفتاح أبو غدة – الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب – الطبعة الأولى 1996/1417.
8. الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر – بعناية الشيخ عبد الفتاح أبو غدة – الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب – الطبعة الأولى 1997/1417 – دار البشائر الإسلامية.
9. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للسيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي المشهور بمرتضى – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
10. المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داوود للشيخ محمود محمد خطاب السبكي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الناشر المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ.
11. عين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة للإمام السيوطي – تحقيق عبد الله محمد درويش – 1983/1403 – دار الإيمان – دمشق – بيروت.

الفهرست

الموضوع **الصفحة**

المقدمة.....1
بين الإمام الشافعي ويونس الصدفي.....3
إن العلم يؤتى ولا يأتي.....5
كلانا على خير وبر.....7
إذاً أرجع وأنا صاغر.....9
بين ابن الأنباري والدارقطني.....11
حوار في مسجد رسول الله.....13
امرأة أصابت ورجل أخطأ.....15
كل الناس أعلم من عمر.....17
لا تسألونا وهذا الحبر فيكم.....19
الميت يبعث في ثيابه.....21
المراجع والمصادر.....23